الأمبراطورية الأسيوية

هل تصبح حقيقة تاريخية

بقلم جورج حداد

لقد مرت على القارة الاسيوية قرون ازدهرت فيها أمبراطوريات عديدة ، ووحدت قسما غير يسير من هذه القطعة من الأرض ، ولا نقتصر فى ذكر هذه الأمبراطوريات على ما قام منها فى العالم القديم . كأمبراطورية البابليين ، والأشوريين ، والفرس ، وإنما هنالك دول أمبراطورية واسعة نشأت فى العصور الوسطى بعد سقوط دولة الرومان وأهمها الأمبراطورية العربية التى سيطرت على آسيا الغربية والوسطى ، وامتدت إلى حدود الصين ، وهكذا كانت القارة الأسيوية إذ ذاك تحكمها أمبراطوريتان كبيرتان أمبراطورية أبناء ماء السماء (الصين) فى الشرق ، وامبراطورية أبناء يعرب فى معظم القسم الباقى . انقرضت بعد ذلك أمبراطورية العرب وضعفت أمبراطورية الصين وتغيرت حالها وبدأت العصور الحديثة تحدثنا عن قيام أمبراطورية يابانية كانت قليلة الشأن حتى منتصف القرن الماضى ، ومن ثم أخذت تزدهر وتنمو حتى ليخال المطلع على شؤونها أنها ستبنى أمبراطورية أسيوية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً

إن حكاية تقدم اليابان والحق يقال حكاية عجيبة وأعجب ما فيها تلك السرعة التى قضت فيها على نظامها القديم منذ ثورة ١٨٦٨ الدستورية ، وأنشأت لنفسها قوة حربية فى البر والبحر حتى أصبحت تضاهى أعظم دول الأرض ، وكذلك بدهشك نجاحها فى إنشاء قوة صناعية لا تقل عن قوى أهم دول أوربا وأمريكا الصناعية اليوم . ثم نجاحها فى مناوأة جارتيها الكبيرتين الصين والروسيا ، واكتساحها قسما من ممتلكاتهما . فروسيا القيصرية والصين الأمبراطورية قد عجزتا بين أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر عن صد هجوم اليابان فأعطتها الأولى نصف جزيرة سخالين وبور آرثر ، وأعطتها الثانية جزيرة فورموزه مع منحها شبه جزيرة كوريا الاستقلال ، وكان استقلال كوريا خطوة نحو استيلاء اليابان عليها . فلم تأت سنة ١٩١٠ إلا وكانت حكومة المكادو صاحبة الأمر فيها ، ولم تنته الحرب العالمية وتوقع معاهدة فرساى إلا وكانت اليابان قد وضعت يدها على بعض مستعمرات الألمان السابقة فى المحيط الهادى وأصبحت من الدول الكبرى التى يحسب لها حساب فى السياسة العالمية وخصوصاً فى المحيط الهادى

لم تقف مطامع اليابان فى القارة الأسيوية عند حد الاستيلاء على كوريا وبعض الجزر فهى عدا شعورها الوطنى المتيقظ وعزتها القومية تشعر بحاجة إلى التوسع ، وحالتها تشبه انكلترا وجميع الدول الصناعية الكبرى . فمساحة جزرها تقريباً مساحة الجزر البريطانية ، وعدد سكانها يزيد على نصف سكان بلاد الانكليز ، وما تنتجه اليابان من المواد الغذائية لا يكفيها ، كما أنه ليس فيها من المواد الأولية ما يكفى حاجة صناعتها . فكوريا هى مركز تصدير الأرز إلى اليابان ، ومنشوريا التى كانت من ملحقات الصين منذ ثلاث سنوات غنية بالمعادن وهذه حوادث السنوات الأخيرة قد أرتنا كيف اهتمت حكومة المكادو بمنشوريا ، وأرسلت جيوشها إليها وتمكنت من فصلها تماماً عن الصين ، وإقامة حكومة مستقلة فيها تحت نفوذها وهكذا أتيح لها أن تسيطر على خمسين مليونا من النفوس فى منشوريا وكوريا ، بينهم قسم من رعاياها اليابانيين ، والمواصلات سريعة والعلاقات متينة بين هذه الملحقات البرية وجزر اليابان

واليوم هل وقفت مطامع اليابان عند هذا الحد ؟ إن حوادث هذه الأيام تجيبنا بالنفى ، وماذا يريد اليابانيون إذاً ؟ إنهم يريدون انفصال المقاطعات الخمس فى شمال الصين عن حكومة نانكين فتقيم حكومة مستقلة كما حصل فى منشوريا وتقبل مراقبتهم ونفوذهم ، وأخيراً قد تطلب هذه المقاطعات الحكومة الملكية فتقبل حكم أمبراطور منشوريا الحالى الذى كان أمبراطور الصين كلها فى عام ١٩١١ . عندئذ يتم تشكيل أمبراطورية كبرى من منشوريا والمقاطعات الخمس يبلغ عدد سكانها ١٢٠ مليوناً من النفوس ، وتحميها الدولة اليابانية ، وبعد مدة قد يذكر أمبراطور منشوريا حكومة نانكين الجمهورية بأن الصين كانت موحدة فى العصور السابقة فيزحف بجيوش منظمة تعضدها حكومة اليابان على نانكين ، فيتم وضع أيدى اليابان على بلاد الصين كلها ، ولا يغرب عن الذهن أن الصين كانت قديماً تحكم تركستان الصينية والتيبت وتحمى عدا منشوريا وكوريا ومنغوليا المستقلة

صينية أيضاً ، فهل تفكر اليابان فى ضم هذه كلها إلى أمبراطوريتها الواسعة ؟ إنها بدون أن تضم هذه المقاطعات تكون بعد أن يتم استيلاؤها على ما يعرف بالصين الأصلية قد حكمت أمبراطورية يزيد عدد سكانها عن ربع سكان العالم ، وتكون أمبراطوريتها فى قارة واحدة غير مجزأة منتشرة أقسامها فى جميع القارات كالأمبراطورية البريطانية

إن سياسة اليابان سوف لا تتغير . فقد أرادت منذ ١٩١٥ أن تفرض حمايتها الاقتصادية والسياسية على الصين ، ولكنها فشلت . إلا أنها واصلت جهودها فتوصلت فى السنوات الثلاث الأخيرة إلى نتيجة باهرة ، وقد تتوصل إلى أكثر من ذلك بعد بضعة شهور . إن مطلبه زعماء المقاطعات الخمس فى شمالى الصين هو تشكيل هيئة تسمى المجلس السياسى الشمالى للجمهورية الصينية له استقلاله الادارى ويشبه مجلس منغوليا المستقل ، ويكاد يتم انفصال هذه المقاطعات عن الصين وعلى هذا المبدأ ، ولكن تحت سيطرة حكومة طوكيو اليابانية . ومهما يكن فان اليابان مستعدة أن تبذل جهوداً جبارة لتحقيق برنامجها فى الصين . غير أن الولايات المتحدة ذات قوات كبرى فى المحيط الهادى وجيوش روسيا السوفيتية بالرصاد على نهر الآمور وأسطولها رابض شرق فلاديفستك

هذا وقد لوحظ مؤخراً شىء من التطور فى العلاقات بين بريطانيا العظمى وروسيا نظراً لمصالحهما المشتركة فى الشرق الأقصى ، وهذا التقارب بين الدولتين الكبيرتين يعد من أشد الحوادث بروزاً فى السياسة الدولية . فاليوم قد تبدلت الحال بين الدولتين وزال ذلك التنافر فى مصالحهما ان كان فى جهات بحر البلطيق أو فى جنوب شرق أوربا ، وفى الشرق الأدنى والهند والشرق الأقصى . فقد كادت مطامح روسيا القيصرية فى الماضى تؤدى الى الحرب مع انكلترا نظراً لاحتكاك مصالحهما أكثر من مرة فى تركيا وفارس وافغانستان وعلى حدود الهند ، ولكن الخطر الألمانى الذى كان يهدد الدولتين هو الذى أجبرهما على تناسى العداوة وحملهما قبل الحرب الكبرى على الاتفاق سوياً ضد حكومة برلين . وعادت العلاقات بعد الحرب الكبرى فسادت بين الدولتين لأن خطر الشيوعية الآتى من موسكو هال بريطانيا العظمى ، ولأنه كان من رأى روسيا إعادة النظر فى معاهدات ١٩١٩ ، غير أن روسيا تحققت بأن قلب تلك المعاهدات لا يأتى إلا بعد حرب لا تعلم إذا كانت تسفر عن نتائج أحسن من نتائج الحرب الماضية . فهى اليوم تريد السلم وهذا ما تريده انكلترا أيضاً . وقد أصبحت مدفوعة بسياسة اليابان الهجومية إلى التفتيش عن صداقة دول ذات مصالح فى الشرق الأقصى . والتعاون بين بريطانيا العظمى وروسيا يقى بمصالح الدولتين خصوصاً لأن تلك المصالح لا تصطدم اليوم على طول الخط الممتد من البلطيق إلى الشرق الأقصى . فقد انقضى عهد مطامح القياصرة فى القسطنطينية وأجزاء الدولة العثمانية وزال النزاع بين انكلترا وروسيا فى خليج فارس وأفغانستان . وليس لروسيا مطامح فى الهند اليوم لأنه ليس لها أسواق تجارية فيها إن كان فى الصادر أو فى الوارد ، وكذلك ليس لها رؤوس أموال تثمرها هناك . والروسيا تهتم بانهاض قواها فى الداخل قبل كل شىء ولذلك تحتاج إلى السلم . وأما فى الشرق الأقصى فانها تريد ضمان وحدة الصين ، وسياستها هناك تشبه سياسة انكلترا فى الدولة العثمانية فى القرن الماضى . فهى تنظر بعين الحسد - كما تنظر انكلترا أيضاً - إلى توسع اليابان على حساب الصين

إن وزارة الخارجية الانكليزية اليوم تريد أن تعوض عن خطيئاتها فى سياستها نحو الروسيا منذ عشر سنوات . فالخطر الياباني الذى لم تشأ حكومات انكلترا السابقة أن تراه والخوف الذى يهدد مستعمرات انكلترا لم يعد مجرد خرافة . إن اليابان اليوم تتسلط على ثلث الامبراطورية الصينية السابقة وعما قريب ستبدأ الحرب الحقيقية بين انكلترا واليابان فى آسيا الوسطى حيث تدافع اليابان عن استقلال الأمة الصينية وتطالب انكلترا باعطاء الصين ما أخذته منها . وسوف لا تقف عند هذا الحد ، بل ربما وضعت أساساً لسياستها هذه العبارة التى بدأ رجال السياسة فى اليابان يرددونها وهى « آسيا للآسيويين » كما وضع الرئيس منرو منذ أكثر من قرن خلا مبدأ لسياسة حكومة الولايات المتحدة « أمريكا للأمريكيين » واليابانيون ماضون فى تنفيذ برنامجهم وعند ما يصبحون على أبواب « كاشغار » فى تركستان الصينية ، لا يصعب عليهم الهجوم على الهند

ومن المحقق أن انكلترا لا تقف مكتوفة اليدين أمام هذه الأخطار ، فهى تقوم بتحصين سنغافورة ، وستدفع ثمن ذلك